الرثاء في شعر البارودي

بقلم الدكتور مصطفى مصطفى البسطويسى عطا
مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

البارودى - كما يفهم ذلك من مقدمة ديوان شعره[١] - وكما يتضح من كلام الدكتور شوقى ضيف عن سيرته[٢] - هو ذو الرياستين (السيف والقلم) والشاعر العبقرى محمود سامى البارودى ، ينتهى نسبه إلى أحد المماليك الجراكسة الذين حكموا مصر قبيل عصر النهضة . ولد بباب الخلق بالقاهرة فى عام ١٢٥٥هـ - ١٨٣٨م ، وذكر بعض الأدباء - ومنهم الدكتور شوقى ضيف - أنه ولد عام ١٨٣٩هـ ، وتوفى رحمه الله عام ١٩٠٤ م .

نفى البارودى بعد القضاء على الثورة العرابية - التى اشترك فيها بعد تردد - إلى جزيرة سرنديب إحدى جزر الهند وبقى فى منفاه سبعة عشر عاما عانى فيها آلام الوحشة والاغتراب وفقد الأهل والأحباب ، وكان النفى

---

(١) بقلم الدكتور محمد حسين هيكل - طبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٨م

(٢) البارودى الشعر الحديث - دار الحديث بمصر - ط ثالثة - ١٩٧٧م ص٤٦ وما بعدها

سبباً فى كثرة علله وأسقامه فضعف سمعه وكف بصره وعاد إلى مصر عام ١٩٠٠م وظل ملازماً بيته حتى توفى فى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٤م

وقد بدأ البارودى فى نظم الشعر فى سن مبكرة ، فقد تغنى به وهو مايزال طالباً فى المدرسة الحربية ، وكان لديه استعداد فطرى لنظم الشعر وأنشده استجابة لموهبته الفطرية ومطاوعة لحسه الفنى .

وقد جاء شعره متسما بنفس السمات التى اتسم بها الشعر العربى فى عصور العربية الزاهرة متأثراً بكبار الشعراء الذين حفظ ووعى كثيراً من أشعارهم فجاء شعره متسما بقوة الأسلوب وروعة التصوير والدقة فى اختيار الألفاظ وانتقاء العبارات واستطاع أن يباعد بين شعره وبين المحسنات البديعية المتكلفة . ولذا استحق أن يوصف بزعامته للشعر العربى فى العصر الحديث .

هذا وقد كثر الرثاء فى شعر البارودى لكثرة دواعيه الملحة ولتعدد المرات التى أصابه فيها الموت فى أهله أو فى أحبابه وأصدقائه . فبعد ثورة عرابى نفى البارودى وأخذ يعانى ألم الغربة والبعد عن أحضان وطنه وأحضان زوجته وأولاده . وهناك أخذت الأنباء تتوالى عليه حاملة نعى أصدقائه واحداً بعد الآخر . ثم كانت كارثته الكبرى عندما صدم بموت زوجته وبعض أولاده من بعدها . ولم يجد أمامه من سلوى غير قيثارته الشعرية فأخذ يوقع عليها ألحانه معبراً عن ألمه المبرح وحرقته اللاذعة .

وسوف أحاول فى هذا المقام أن أضع صورة مبسطة لشعر الرثاء وما يتميز به فى ديوان البارودى معبراً عن رؤاى وما استطعت فهمه من وراء قراءتى لقصائد البارودى فى الرثاء .

رثاء الوالد :

ذكرت آنفاً أن والد البارودى قد توفى فى عام ١٢٦٢هـ وكان البارودى حينئذ فى السابعة من عمره . وقد رثى الشاعر أباه حين بلغ العشرين من عمره بقصيدة مؤثرة ويظهر فيها شدة وجده على أبيه الذى كان يحنو عليه ويحميه من نكبات الزمان . وقد بدأ البارودى قصيدته فى رثاء والده بقوله[1] :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى

طاح الردى بشهاب الحرب والنادى

ويوحى قوله (طاح الردى) : أن الموت قد ذهب بوالده على غرة وأخذه منهم وهم فى أشد الحاجة إلى رعايته . حالهم فى ذلك حال الأنعام التى تحتاج إلى راع يحميها وسائس يوجهها إلى أخصب المراعى وأغناها .

وقد وصف البارودى أباه فى هذه القصيدة بعدة أوصاف تعبر عن أن الشاعر كان ينظر إلى والده بأنه المثل الأعلى للرجل المتكامل : فهو الشجاع

---

(١) ديوان البارودى ـ تصحيح وضبط : على الجارم بك ـ ومحمد شفيق معروف ١٨٦/١

الذى يهابه الأسد الجائر الهائج . وهو النموذج الأعلى فى الوفاء حين يعد وفى الكرم والعفو حين يوعد ، وهو الشجاع المهذب النفس الكريم الأخلاق والشمائل ، وهو الذى كان — رغم قوته وشدة بأسه — يستشير أصحابه ولا يستبد برأى ولا يقدم على أمر من غير أن يعد له عدته إذا أنفذ أمراً لم يندم على إنفاذه وإبرامه . يقول البارودى :

مات الذى ترهب الأقران صولته ويتقى بأسه الضرغامة العادى
أبى ومن كأبى فى الحى نعلمه ؟ أوفى وأكرم فى وعد وإيعاد
مهذب النفس غراء شمائله بعيد شأو العلا طلاع أنجاد
لا يستبد برأى قبل تبصرة ولا يهم بأمر قبل إعداد
نراه ذا أهبة فى كل نائبة كالليث مرتقباً صيداً بمرصاد

ولاجتماع هذه الصفات كلها فى هذا الوالد فقد أتى البارودى بأبيات تدل على تفجع المشاعر وأهل بيته بموته وأن مصيبتهم فيه لم تكن هينة فقد هانت الدنيا أمامهم وزهدوا بعده فى الماء والزاد . ولا غرو فقد وئدت بموته المكارم وأصبح الأمر فوضى لا يجد من يقومه :

هانت لميتته الدنيا وزهدنا فرط الأسى بعده فى الماء والزاد
هل للمكارم من يحيى مناسكها؟ أم للضلالة بعد اليوم من هادى ؟
جف الندى وانقضى عمر الجدا وسرى
حكم الردى بين أرواح وأجساد
فلتمرح الخيل لهواً فى مقاودها ولتصدأ البيض ملقاة بأغماد

وإن كان جميع من حول الشاعر مصابين بموت الوالد إلا أن الشاعر

نفسه كان أكثرهم مصاباً . وقد أوقفنا على سبب ذلك فذكر أن والده تركه صغيراً لا يرهبه أحد ولا يعينه صديق مخلص إذا احتاج إليه ، ولذا فهو فى حالة بكاء دائم لا يجف دمعه ولا يهدأ فؤاده :

مضى وخلفنى فى سابعة لا يرهب الخصم إبراقى وإرعادى
إذا تلفت لم ألمح أخا ثقة يأوى إلى ولا يسعى لإنجادى
فالعين ليس لها من دمعها وزر والقلب ليس له من حزنه فادى

ولا غرابة فى ذلك فقد كان والده هو الملجأ الذى يأوى إليه وقت الشدة وهو النبع الذى يحميه من خطر الهلاك حين الجدب :

قد كان لى وزراً آوى إليه إذا غاض المعين وجف الزرع بالوادى

ولكن بيت البارودى الذى يقول فيه :

مضى وخلفنى فى سن سابعة لا يرهب الخصم إبراقى وإرعادى

يجعل من يقرأ أبياته فى وصف والده وما كان عليه من محامد ومكارم يتساءل : هل كان البارودى صادقاً حقا فيما وصف به والده ؟ وهل يستطيع طفل فى السابعة من عمره أن يدرك كل هذه الصفات وأن يحتفظ بها فى عقله حتى استطاع أن يعرفنا بها فى سن العشرين فى شعر مثل هذا ؟

أعتقد أن البارودى كان صادقاً فيما ذكره من صفات اتصف بها والده فلابد أنه قد سمع كثيرا ممن كفله بعد موت والده من أحاديث متعددة عن الوالد الفارس الذى كان يدير إحدى مقاطعات الدولة المصرية وخاصة أن المحيطين بالبارودى الطفل كانوا يريدون منه أن يكون فارساً شجاعا وبطلا مغواراً يسير سيرة والده وأن يكون له نصيب فى الإدارة والحكم فلابد أن يكونوا قد

قصوا على سمعه ما كان يتصف به والده من صفات يجب أن يتصف هو الآخر بها ولابد وأن يكونوا قد تحدثوا معه أكثر من مرة فى هذا الشأن حتى وعاها عقل الصبى وفكره . فلما شعر الفتى وأحس بتوقد الملكة الشعرية بين جوانحه رأى من الواجب عليه أن يسجل ما تردد على مسامعه كثيراً من صفات كان يتصف بها والده فى شعر يخلدها ويفخر بها بين أقرانه وأنداده .

وقد لاحظ العقاد أن البارودى فى رثائه لوالده قد تأثر بحياته فى الجندية وانطباعه على القوة والبأس فلم يتحسر على موت والده إلا لأجل أن تركه غير موهوب الإبراق والإرعاد ليس إلا . يقول الأستاذ العقاد فى ذلك[1] :

« ومن انطباعه على الجندية وحب القوة والبأس أنه لم يذكر من حسرات اليتيم الذى فارقه أبوه فى طفولته إلا أن يكون غير موهوب الإبراق والإرعاد بين الخصوم :

مضى وخلفنى فى سن سابعة لايرهب الخصم إبراقى وإرعادى

فهو لا يرى من حسرات الحياة فى الصبا والشباب حسرة أقطع فى النفس من فقد القوة واستباحه الذمار » .

وقد مزج البارودى قصيدته فى رثاء والده بالفخر بنفسه وأنه فرد بين أنداده لا نظير له بينهم ولا مماثل له فيهم . وهى نغمة يرددها البارودى كثيراً فى شعره :

فإن أكن عشت فرداً بين آصرتى فهاأنا اليوم فرد بين أندادى

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى — دار نهضة مصر للطباعة والنشر بالقاهرة — ١٩٧٧ م — ص١٢٦ .

بلغت من فضل ربى ما غنيت به عن كل قار من الأملاك أو بادى
فما مددت يدى إلا لمنح يد ولا سعت قدمى إلا لإسعاد

ولقد بلغ البارودى قمة البر بالوالد المرثى والاعتراف بفضله عليه حينما افتخر بكثير من الصفات التى يتصف هو بها ثم أرجع الفضل فى اتصافه بها كلها إلى والده الذى نهج نهجه وسار سيرته حتى أصبح مثالا وحده بين أنداده :

تبعت نهج أبى فضلا ومحمية حتى برعت وكان الفضل للبادى

رثاء الزوجة :

وإذا انتقلنا إلى رثاء البارودى لزوجته وجدناه يقول فى ذلك قصيدة مؤثرة تدل على عميق حزنه وشدة وجده . وقد بدأها بقوله[1] :

أيد المنون قدحت أى زناد وأطردت أية شعلة بفؤادى

وقد ماتت زوجته وهو فى منفاه وورد إليه نعيها وهو بسرنديب فى سنة ١٣٠٢ هـ الموافقة سنة ١٨٨٥ م[2] .

وقد فزع البارودى وهلع حينما بلغه نعى زوجته إليه وأخذ يبين حالته وماأحل به بعد أن فارقت زوجته الدنيا وتركته مرعى للهموم والحسرات .

وقد تناول البارودى فى قصيدته فى رثاء زوجته الحديث عن ثلاثة جوانب :

---

(١) ديوان البارودى . تحقيق وضبط : على الجارم بك ومحمد شفيق معروف جـ ١ ص ١٧٢

(٢) محمود سامى البارودى - محمد صبرى ص ٥٥

الأول : وصف حالته بعد فراق زوجته : وقد أطال فى الحديث عن هذا الجانب وفصل لنا كل ما ألم به من هم وما حل بقلبه من حسرة ولوعة حينما أتاه البريد حاملا إليه نعيها فسقط مغشيا عليه كمن أصيب بلدغ أخبث الحيات فى صميم قلبه وأصبح قلبه متقداً بنار حامية وأظلمت الدنيا أمام عينه فلم تعد ترى من فرط البكاء . فقد كانت مصيبته فى فقد زوجته عظيمة :

ورد البريد بغير ما أملته ... تعس البريد وشاه وجه الحادى
فسقطت مغشيا على كأنما ... نهشت صميم القلب حية وادى
ويلمه رزءا أطار نعيه ... بالقلب شعلة مارج وقاد
عظمت مصيبته على بقدر ما ... عظمت لدى شماتة الحساد

ويبين البارودى ما أصابه نتيجة عظم مصيبته . فلقد وهن عزمه وتحطم عوده وقذيت عينه فهطلت منها الدموع ووهنت قوته وأبلت الحسرات جسمه وأصبح عاجزاً لا يملك من أمره سوى العبرات والزفرات :

أيد المنون قدحت أى زناد ... وأطرت أية شعلة بفؤادى
أوهنت عزمى وهو حملة فيلق ... وحطمت عودى وهو رمح طراد
لم أدر هل خطب ألم بساحتى ... فأناخ أم سهم أصاب سوادى
أقذى العيون فأسبلت بمدامع ... تجرى على الخدين كالفرصاد
ما كنت أحسبنى أراع لحادث ... حتى منيت به فأوهن آدى
أبلتنى الحسرات حتى لم يكد ... جسمى يلوح لأعين العواد
أستنجد الزفرات وهى لوافح ... وأسفه العبرات وهى بوادى
لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يدى ... تقوى على رد الحبيب الغادى

ونرى أن البارودى فى هذه الأبيات رغم شدة مصابه وهول ما نزل به جاء بأبرع التصوير لحاله وما أصبح عليه . كما نراه هنا ينظر إلى من سبقه من شعراء العربية الكبار وهو يتحدث عن حالته النفسية بعد أن حمل إليه البريد هذا الخبر المؤلم .

أنظر إلى قوله وهو يصور دموعه فى براعة وهى تجرى على خديه فى غزارة حين سمع خبر وفاة زوجته :

لم أدر هل خطب ألم بساحتى ... فأناخ أم سهم أصاب سوادى
أقذى العيون فأسبلت بمدامع ... تجرى على الخدين كالفرصاد

وانظر إلى قوله مصوراً فرط تحول جسمه من كثرة الحسرات التى ألمت به من جراء هذا الخبر :

أبابتنى الحسرات حتى لم يكد ... جسمى يلوح لأعين العواد

وهل هناك شك فى أنه استوحى معنى هذا البيت من قراءته لأبيات المتنبى فى هذا المعنى وخاصة فى قوله[1] :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وحديث الشاعر عن نفسه جعله يتوجه إلى زوجته فى قبرها مبينا أثر ما حل بها على نفسه وأثر موتها على حياته كلها . فهو دائم الأسف شديد الهم مضطرب الأمر . ولذا فهو يقدم نفسه فداء لها لو كان يقبل فداء

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى - تحقيق وضبط وتصحيح : مصطفى السقا - ابراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى - الطبعة الأخيرة - ١٩٧١ م - مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ج ٤ ص ١٨٦ .

هيهات أن يكون هناك فداء إذا نزل الموت بمخلوق . ولذا فإن الشاعر لم يجد أمامه غير التصبر ومغالبة الأحزان ولكنه رغم هذا دائم التذكر لها وطيفها أمام عينه يلوح لها حين ينتبه من نومه فإذا أوى إلى فراشه ليلا كان آخر شيء يغمض عليه جفونه .

أسليلة القمرين أى فجيعة ... حلت لفقدك بين هذا النادى
أعزز على بأن أراك رهينة ... فى جوف أغبر قاتم الأسداد
أو أن تبينى عن قرارة منزل ... كنت الضياء له بكل سواد
لو كان هذا الدهر يقبل فدية ... بالنفس عنك لكنت أول فادى
لكنها الأقدار ليس بناجع ... فيها سوى التسليم والإخلاد
هيهات بعدك أن تقر جوانحى ... أسفا لبعدك أو يلين مهادى
ولهى عليك مصاحب لمسيرتى ... والدمع فيك ملازم لوسادى
فإذا انتبهت فأنت أول ذكرتى ... وإذا أويت فأنت آخر زادى

وما أجمل تصوير البارودى لحالته وما أمسى عليه بعد رحيل زوجته فى قوله :

أمسيت بعدك عبرة لذوى الأسى ... فى يوم كل مصيبة وحداد
متخشعا أمشى الضراء كأننى ... أخشى الفجاءة من صيال أعادى
ما بين حرن باطن أكل الحشا ... بلهيب سورته وسقم بادى

فقد أمسى البارودى عبرة يعتبر بها المصابون وأمسى خائر القوى يسير متخفيا كمن يخشى أن يفاجئه أحد أعدائه بالسطو عليه . وقد عم الحزن ظاهره وباطنه ولم يترك له منفذاً إلى المسرات وترك الأحزان .

وقد أعجب الأستاذ محمد صبرى بتعبير البارودى عن شدة أساه وملازمة

الدموع له فى قوله :

ولهى عليك مصاحب لمسيرتى والدمع فيك ملازم لوسادى

وقال معلقا على هذا البيت (١) .

« وإن إشارة البارودى إلى الدمع الذى سيلازم وسادته بعد فرقتها أفضل عندى على بساطتها من دك الجبال وكسوف الشمس جزعا» .

الجانب الثانى الذى تحدث عنه البارودى فى قصيدته فى رثاء زوجته : هو وصف فاجعة بناته ولوعتهن وعظم كارثتهن بفقدها ، وتصوير ما حل بهن بعد الأم التى كانت تحنو عليهن . ولوم الدهر على اختطافه لزوجته رغم إحتياج الشاعر وأولاده إليها .

وقد جاء حديثه عن هذا الجانب فى عدة أبيات قليلة ولكنها مصورة أتم تصوير لحالة هؤلاء البنات وما أصبحن عليه من حزن وأسى . فهن دائمات التوجع قرحى العيون رواجف الأكباد دائمات البكاء من فرط الأسى والحزن ولا غرابة فى هذا فقد فارقتهن التى كانت تسعدهن وتحنو عليهن .

يا دهر فيم فجعتنى بخليلة كانت خلاصة عدتى وعتادى

إن كنت لم ترحم ضنانى لبعدها أفلا رحمت من الأسى أولادى

أفردتهن فلم ينمن توجعا قرحى العيون رواجف الأكباد

يبكين من وله فراق حفية كانت لهن كثيرة الإسعاد

وما أحسن تصوير البارودى لحزن هؤلاء الأولاد وغزارة دموعهن من البكاء حتى ليستبدلن بدر عقودهن درا من الدموع يجعلنها قلائد لأجيادهن :

ألقين در عقودهن وصغن من در الدموع قلائد الأجياد

---

(١) محمود سامى البارودى ص ٥١

وما أبرع المقابلة فى المعنى المعبر عنه فى قوله :

فخدودهن من الدموع ندية وقلوبهن من الهموم صوادى

الجانب الثالث : وهو التصبر والوعظ واللجوء إلى الله واحتساب الأجر عنده ، فبعد أن بين لنا حاله وحال أولاده بعد فقد الزوجة والأم لم يجد أمامه غير الصبر يسلى به نفسه والتمسك بالله واللجوء إليه عسى أن يكشف الله عنهم ما هم فيه من هم وحسرات . يقول فى ذلك :

كل امرىء ملاق ربه والناس فى الدنيا على ميعاد
وكفى بعادية الحوادث منذراً للغافلين لو اكتفوا بعوادى
فلينظر الإنسان نظرة عاقل لمصارع الآباء والأجداد
عصف الزمان بهم وبدد شملهم فى الأرض بين تهائم ونجاد
تعس امرؤ نسى المعاد وما درى أن المنون إليه بالمرصاد
فاستهد يامحمود ربك والتمس منه المعونة فهو نعم الهادى
واسأله مغفرة لمن حل الثرى بالأمس فهو مجيب كل منادى

ونلحظ فى قصيدة البارودى فى رثاء زوجته عدة أمور لابد من ذكرها فى هذا المقام وهى :

أولا : الدقة فى التصوير والبراعة فى التعبير ، فرغم فظاعة ما أصيب به البارودى إلا أن ذلك لم يحل بينه وبين تصوير حالته وحالة أولاده بعد رحيل من كانت لهم بمثابة الدوحة الغناء التى ينشدون عندها الراحة والتخلص من الهموم والآلام ويشعرون فى ظلها بالدفء والحنان ، وإن كان الشاعر بعيداً عنها وقتئذ لظروف منفاه فإنه كان يشعر بهذه المعانى

كلها لاطمئنانه على أولاده وشعوره بأن هناك فى مصر من تحل محله فى الرعاية وحسن التربية .

ثانيا : أن البارودى وجه كل همه فى قصيدته إلى وصف حالته وهو وحالة أولاده نتيجة ما أصيبوا به ولم يتوجه إلى زوجته الراحلة بذكر أوصافها كما يفعل الشعراء العرب من قبله ومن بعده . ولم يذكر فى القصيدة من صفات زوجته غير أوصاف قليلة جدا . كقوله بأنها ساليلة القمرين مكنيا عن كريم أصلها وشريف نسبها فى قوله :

أسليلة القمرين أى فجيعة حلت لفقدك بين هذا النادى

وكوصفه لها بأنها كانت ضياء لمنزله ولمن فيه فى أوقات الظلام :

أو أن تبيني عن قرارة منزل كنت الضياء له بكل سواد

ثم عاد إلى مدح أصلها فقال :

تالله ماجفت دموعى بعدما ذهب الردى بك يابنة الأمجاد

وإن كان المعروف أن الرثاء مدح للأموات وتعداد لفضائلهم إلا أن ما فعله البارودى من إقلاله من ذكر أوصاف زوجته جدير بالتقدير والإعظام . فهو بفعله هذا قد مدح زوجته من طريق غير مباشر . فحينما يعدد الشاعر ما أصابه هو وأولاده من ضروب الآلام والحسرات والأحزان يعرف القارىء لشعره هذا مدى عظمة هذه الزوجة التى كان موتها وبالا أصيب به الزوج والأولاد نزلت عليهم بسبب موتها كل هذه الهموم والأحزان.

ثالثا : أن الشاعر قد أكثر من ذكر من حل بهم الموت من الأمم

الماضية حتى يتسلى بهم ويدخل على قلبه التصبر بذكرهم وأن الموت دائما لاحق بكل عزيز . ولذا فمن الواجب على من يصاب بمثل مصيبته أن يتصبر ويلجأ إلى ربه ويلتمس منه المعونة والغفران لمن رحل .

وقد ذكر فى هذا المجال لبيد بن ربيعة الشاعر الحكيم ووصيته لابنتيه أن يبكياه بعد موته حولا كاملا ورأى لبيد أن تنفيذ ماوصى به عذر لمن اعتذر . ورأى البارودى أن لبيد كان فى هذا الحكم بخيلا غير كريم .

وذكر من القبائل والأمم ماعصف الموت بهم من حمير وثمود وعاد وقضاعة وإياد وأهل المدائن . ثم عول على هرمى الجيزة وأبى الهول وأن من يتأمل شأنهم يعلم كم جرى فى الدهر من عدم وإيجاد . وختم البارودى أبياته بقوله :

أمم خلت فاستعجمت أخبارها حتى غدت مجهولة الإسناد

وما فعله البارودى فى هذا المجال جميل وعظيم جعله يعود إلى رشده ويعتصم بربه ويحتسب الأجر والثواب عنده آملا أن يجمعه الله بحليلته يوم القيامة .

ولكنى أعتقد أن ذكر هذه الأمم وسرد أخبارها فى ميدان الرثاء يقلل من صدق العاطفة التى نحس بها فى بقية القصيدة لأن تذكر أخبار هذه الأمم وسرد ماحل بهم يبعد الشاعر شيئا ما عن مصيبته هو وما نزل به .

رابعا : أن الشاعر قد ختم قصيدته بمخاطبة زوجته الراحلة مؤكدا لها

وفاءه لها وبقاءه على ذكراها ثم التحية لها فى كل وقت وحين يجمعها الله يوم القيامة . يقول فى ذلك :

تالله ما جفت دموعى بعد ما ذهب الردى بك يا ابنة الأمجاد
لا تحسبينى ملت عنك مع الهوى هيهات ماترك الوفاء بعادى
قد كدت أقضى حسرة لو لم أكن متوقعاً لقياك يوم معاد
فعليك من قلبى التحية كلما ناحت مطوقة على الأعواد

وهو ختام تقليدى معروف قبل البارودى فى كثير من قصائد الرثاء فى الشعر العربى . ومن ذلك قول ابن الرومى فى ختام قصيدته فى رثاء ولده محمد :

عليك سلام الله منى تحيـة ومن كل غيث صادق البرق والرعد[1]

ومنه أيضا قول أبى تمام فى ختام قصيدته فى رثاء محمد بن حميد الطوسى[2]

عليك سلام الله وقفاً فإننى رأيت الكريم الحر ليس له عمر

ومنه كذلك قول شوقى فى رثاء ثروت باشا[3] :

---

(١) القصيدة بديوان ابن الرومى - تحقيق - حسين نصار - مطبعة دار الكتب ١٩٧٣ ٦٢٤/٢

(٢) القصيدة بديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى - تحقيق محمد عبده عزام - الطبعة الثانية ١٩٧٦ م ٧٩/٤

(٣) الشوقيات - طبع المكتبة التجارية الكبرى ٦٥/٣

أبا عزيز سلام الله لارسل إليك تحمل تسليمى ولا برد
ونفحة من قوافى الشعر كنت لها فى مجلس الراح والريحان تحتشد
أرسلتها وبعثت الدمع يكنفها كما تحدر حول السوسن البرد

خامساً : أن البارودى لم يلجأ فى تصوير مانزل به فى هذه القصيدة إلى المحسنات البديعية أو الزخارف اللفظية إلا فى مرات قليلة . وهذا مناسب جدا لمجال الرثاء الذى ينشغل الشاعر فيه بمصيبته عن كل ماسواها ولا يبقى هناك مجال للتأنق والزخرفة والتزين . وهذا هو الشىء الذى يسترعى الانتباه ويدعو إلى الإعجاب فى شعر البارودى كله وهو نزوعه إلى تصوير واقع نفسه وواقع مجتمعه كما هو فى بساطة وقوة دون اللجوء الكثير إلى المحسنات البديعية اللفظية مع البعد عن الغرابة فى الخيال .

رثاء الأبناء :

كان للبارودى ولدان وأربع فتيات . فقد منهم فى حياته ابناً صغيراً هو ابنه على وابنتين توفيت إحداهما فى ليلة زفاف أخت لها إلى زوجها .

وفى ديوان البارودى بيتان فى نعى إحدى فتياته . وفيه أيضا قصيدتان فى رثاء ابنه على وبيتان آخران فى رثاء على أيضا .

وإذا نظرنا إلى البيتين اللذين قالهما البارودى فى رثاء ابنته - ولم يحدد من هى ولم يذكر اسمها - عرفنا أن البارودى قد فزع فزعا شديدا عندما ورد إليه نعى ابنته إليه فغلبه الحزن وعمه الأسى فلجأ إلى الدموع علها تخفف عنه بعض مايحس به ولكنها لم تسعفه من شدة الأسى والحزن . والمعروف أن الدموع تعز على الإنسان إذا اشتد حزنه وغلبه الوجد والأسى .

يقول البارودى فى هذين البيتين [١] :

فزعت إلى الدموع فلم تجبنى وفقد الدمع عند الحزن داء
وماقصرت فى جزع ولكن إذا غلب الأسى ذهب البكاء

وقد استوحى البارودى معنى هذين البيتين من قول ابن الرومى فى رثاء ولده الأوسط محمد [٢] :

بكاؤكما يشفى وإن كان لايجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندى

ومن قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر [٣] :

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

ويفهم من قول البارودى فى بيته الثانى :

* إذا غلب الأسى ذهب البكاء *

بجانب جريانه مجرى المثل - أن وقع هذا النعى على قلبه كان شديدا وأن أساه على ابنته قد غلبه وأفقده صوابه لدرجة أنه لم يستطع البكاء فخشى أن يصيبه داء بسبب عدم استجابة الدموع له مع شدة وجده وغلبة أساه . ولاغرابة فى هذا فهو يودع ابنته وفلذة من فلذات كبده وقطعة من نفسه . ولذا فهو لم يجد حرجا - وهو الفارس البطل الذى طالما تحمل أهوالا وأهوالا - لم يجد حرجا من الاعتراف بشدة جزعه وغلبة أساه وحزنه .

---

(١) ديوان البارودى جـ ١ ص ٢٦ .
(٢) القصيدة بديوان ابن الرومى - جـ ٢ ص ٦٢٤ .
(٣) شعر الخنساء تحقيق وشرح : كرم البستانى - دار السيرة - بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٢ ص ٤١ .

وإذا انتقلنا إلى شعر البارودى فى رثاء ابنه على برزت لنا فيه عدة جوانب يجدر بنا أن نتحدث فيها وهى :

أولا : وصف الشاعر لحالته هو وما ألم به بعد فقد ولده . وقد أكثر الشاعر من الحديث عن هذا الجانب . وهذا إحساس طبيعى عند كل من يبتلى بمثل هذه الفجيعة ، واختطفت الموت إحدى فلذات كبده . فقد ضعف جسمه ووهنت قوته وأصبحت أوقاته كلها نحيباً وسهداً وبكاء حتى لقد ضعف بصره وقذيت عينه من فرط البكاء . إقرأ معى قوله فى قصيدته الأولى من قصيدتيه فى رثاء ولده [1] :

واكبدى ياعلى بعدك لو كانت تبل العليل (واكبدى)
فقدك سل العظام منى ور د الصبر عنى وفت فى عضدى
كم ليلة فيك لاصباح لها سهرتها باكيا بلا مدد
دمع وسهد وأى ناظرة تبقى على المدمعين والسهد

وماأجمل التصوير الفنى ومافيه من إبداع فى بيته الثانى من هذه الأبيات فقد أتى فيه بعدة كنايات أوضحت فى براعة أن موت ولده كان بمثابة نزع عظامه من جسمه وكسر قوته ووهن عزيمته . ثم اقرأ قوله فى القصيدة الثانية [2] .

بكيت عليا إذ مضى لسبيله بعين تكاد الروح فى دمعها تجرى
وإنى لأدرى أن حزنى لايفى برزئى ولكن لاسبيل إلى الصبر

---

(١) ديوان البارودى جـ ١ ص ١٨٤ .
(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٨٨ .

ثانيا : التعجب والتفجع من الدهر ومصائبه ومن الموت ورزاياه وكيف أن الموت لايفرق بين صغير وكبير . فهو يتعجب كيف اختطف الموت ابنه وهو الحريص على بقائه بكل مايملك من وسائل ولكن الموت رغم هذا قد فاجأه وخدعه وطواه منه وأودعه الثرى بيده . وليس لديه الآن إلا التصبر والجلد . يقول فى قصيدته الأولى :

كيف طوتك المنون يا ولدى ؟ وكيف أودعتك الثرى بيدى ؟
ما كنت أدرى إذ كنت أخشى عليـ ـك أن الحمام بالرصد
فاجأنى الدهر فيك من حيث لا أعـ ـلم ختلا والدهر كالأسد
فليبك قلبى عليك فالعين لا تبـ ـلغ بالدمع رتبة الخلد
إن يكن أخنى الردى عليك فقد أخنى أليم الضنى على جسدى

ويقول فى قصيدته الثانية :

وكيف أذود القلب عن حسراته وأهون ماألقاه يصدع فى الصخر

ويقول فى بيتيه المفردين فى رثاء ولده أيضا (١) :

لم أصطبر بعدك من سلوة لكن تصبرت على جمر
وشيمة العاقل فى رزئه أن يسبق السلوة بالصبر

ونحس بكلمات البارودى فى هذه الأبيات كلها تقطر ألما وحزنا على مافعله الدهر به . وكأن الدهر قد خصه بمصائبه الجسام فهو يعانى منها ولا يفيق فكلما تصبر وتجلد ليثبت لنفسه أن ماوقع به هو مجرد حادثة وقد يصفو له الدهر بعدها ولكن مايحدث هو العكس لما كان يتوقع . فقد توالت عليه الحسرات وتتابعت عليه الآلام ولم يجد أمامه كذلك إلا التصبر وإن

(١) ديوان البارودى جـ ٢ ص ٨٨ .

كان فى تصبره على هذه الرزايا المتتالية أشبه بالتصبر على جمر يأكل ويحرق ضلوعه .

ثالثاً : اللجوء إلى الله واحتساب الأجر والثواب عنده آملا أن يجمعه الله به يوم الحشر . وهذا ما يجب أن يفعله العقلاء المؤمنون الذين يعلمون أن لله ما أعطى وله ماأخذ . وأن الغضب والاعتراض على قضاء الله لن يحيي ميتا بل يكثر من الذنوب ويغضب الله - سبحانه وتعالى - ولذا فالبارودى رغم أليم مصابه وشدة مصيبته متذرع بالصبر راض بما قسمه الله له وما ابتلاه الله به :

يلومونني أنى تجاوزت فى البكا ... وهل لامرىء لم يبك فى الحزن من عذر
إذا المرء لم يفرح ويحزن لنعمة ... وبؤس فلا يرجى لنفع ولا ضر
وما كنت لولا قسمة الله فى الورى ... لأصبر لكنا إلى غاية نسرى
لقد خفف البلوى - وإن هى أشرفت ... على النفس - ماأرجوه من موعد الحشر

رابعاً : مزج الحزن وأقوال الرثاء ببعض الأقوال التى تجرى مجرى الحكم والأمثال ليأخذ منها العبرة والعظة وتكون له طريقا إلى التصبر والتسلى حتى يثوب إلى رشده ولا يخرج عما هو مطبوع عليه من الشجاعة والقوة واحتمال الأهوال . انظر إلى قوله :

وشيمة العاقل فى رزئه ... أن يسبق السلوة بالصبر

وقوله :

إذا المرء لم يفرح ويحزن لنعمة ... وبؤس فلا يرجى لنفع ولا ضر

وليس ذكر مثل هذه الأقوال فى مقام الرثاء بمقلل من صدق عاطفة الشاعر بل إن مثل هذه الأقوال من الأمور التى تتفق مع الرثاء ومغالبة الأحزان

لأن المصاب يأخذ من مثل هذه الأقوال العظة والعبرة وتعينه على التصبر والتسلى.

خامساً : أن البارودى كان يمزج رثاءه لولده بالفخر بنفسه وبثباته أمام نوائب الدهر فلم ينسه ألم المصيبة وهول الكارثة أن يذكر بعض الأقوال التى توحى بشجاعته وقوته .

اقرأ معى قوله :

فاجأنى الدهر فيك من حيث لا أعـ ـلم ختلا والدهر كالأسد
لولا اتقاء الحياء لاعتضدت بالحلـ ـم هياماً يحيق بالجلد
لكن أبت نفسى الكريمة أن أثلم حد العزاء بالكمد
فليبك قلبى عليك فالعين لا تبلغ بالدمع رتبة الخلد

وقوله :

لم اصطبر بعدك من سلوة لكن تصبرت على جمر

وفى اعتقادى أن الدافع له إلى هذا الفخر فى مثل هذا المقام هو أن يثبت لنفسه وللناس أنه ما زال (رغم كل ما أصيب به) قوى العزيمة شديد البأس قادراً على احتمال المصائب والأهوال .

سادساً : أن البارودى قد ختم شعره فى رثاء ولده باختتام التقليدى المعروف عند كثير من شعراء الأدب العربى وهو الدعاء للمرثى وإهدائه التحية ، والأمل فى التلاقى يوم الحشر فى جنات النعيم يقول البارودى فى ختام قصيدته الأولى فى رثاء ولده :

عليك منى السلام توديع لا قا ل ولكن توديع مضطهد

ويقول فى ختام القصيدة الثانية فى هذا الشأن :

وما كنت لولا قسمة الله فى الورى لأصبر لكنا إلى غاية نسرى

لقد خفف البلوى وإن هى أشرفت على النفس ما أرجوه من موعد الحشر

ومما يجدر الإشارة إليه هنا أن كلا من شاعر النيل حافظ إبراهيم وأمير الشعراء أحمد شوقى قد قاما بواجبهما نحو البارودى وعزاه كل منهما فى فقد ابنته التى توفيت أثناء زفاف شقيقاتها . أما حافظ إبراهيم فقد رثاها بقصيدة رائعة بدأها بقوله[1] :

بين السرائر ضنة دفنوك أم فى المحاجر خلسة خبئوك

كما رثاها ببيتين آخرين يقول فيهما[2] :

وديعة ردت إلى ربها ومالك الأرواح أولى بها

ألم يكن صبرك فى بعدها يربو على شكرك فى قربها ؟

أما شوقى فقد رثاها بقصيدة جيدة يقول فى أولها[3] :

أحيث تلوح المنى تأفل ؟ كفى عظة أيها المنزل

ويقول فيها معزيا البارودى ومشيراً إلى حادث موتها فى يوم زفاف شقيقتها :

كأنى (بسامى) هلوع الفؤاد إذا سُمعت همسة يعجل

يرى قدراً يأمل اللطف فيه وعادى الردى دون ما يامل

يضىء لضيفانه بشره وبين الضلوع الغضى المشعل

ويقربهم الأنس فى منزل ويجمعه والأسى منزل

فمن غادة فى مجالى الزفاف إلى غادة داؤها معضل

---

(١) ديوان حافظ ـ ضبط وتصحيح : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبيارى جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(٣) الشوقيات ـ أحمد شوقى ـ طبع المكتبة التجارية ٣/١١٤

وذى فى نفاستها تنطوى وذى فى نفـائسها ترفل

رثاء الأصدقاء :

وجدت فى ديوان البارودى عدة قصائد فى رثاء أصدقائه من الأدباء والمفكرين أولها قصيدته الهمزية فى رثاء صديقه عبد الله باشا فكرى . وقد بدأها بقوله[1] :

ألا بأبى من كان نوراً مجسداً يفيض علينا بالنعيم رواؤه

وثانيها قصيدته البائية التى قالها وهو فى منفاه بسرنديب يتشوق إلى مصر ويرثى صديقه : الشيخ حسين الموصفى وعبد الله باشا فكرى . وقد بدأها بقوله[2] :

أين أيام لذتى وشبابى أتراها تعود بعد الذهاب

وثالثها قصيدته العينية فى رثاء صديقه أحمد فارس الشدياق وتعزيته ابنه . وقد بدأها بقوله[3] :

متى يشتفى هذا الفؤاد المفجع ؟ وفى كل يوم راحل ليس يرجع

ومن قراءتى لهذه القصائد لاحظت بها عدة أمور رأيت من الواجب توضيحها فى هذا المقام وهى :

أولا : أن البارودى فى هذه القصائد أكثر من الحديث عن صفات أصدقائه المرثيين على عكس ما فعل فى رثاء زوجته وأولاده . وقد يكون هذا نوعا من الوفاء لأصدقائه وهو أن ينبه قراء شعره لمحاسن أصدقائه وما كانوا يتصفون به من كريم الصفات وجميل الخلال التى كانوا عليها فى حياتهم

(١) ديوان البارودى جـ ١ ص٢٧ (٢) ديوان البارودى جـ ١ ص ٤٨
(٣) ديوان البارودى جـ ٢ ص ٢١٠

على عكس ذلك مع أولاده أو زوجته فإن إكثاره من ذكر صفاتهم فى رثائه لهم يعد نوعا من الرياء والمفاخرة التى لا يعجب بها كثير من الناس اقرأ معى قول البارودى فى رثاء عبد الله باشا فكرى :

ألا بأبى من كان نوراً مجسداً يفيض علينا بالنعيم رواؤه
وما كان إلا كوكباً حل بالثرى لوقت فلما تم شال ضياؤه
نضا عنه أثواب الفناء ورفرفت إلى الفلك الأعلى به مضواؤه
فإن يك ولى فهو باق بأفقه كنجم يشوق الناظرين بهاؤه

ويقول عنه فى قصيدته الثانية :

أين منى (حسين) ؟ بل أين (عبد الله) ؟ رب الكمال والآداب

ويبنوه بذكراها الطيبة التى كانا يتصفان بها فيقول :

مضيا غير ذكرة وبقاء الذكر فخر يدوم للأعقاب

ويقول فى تعداد صفات صديقه أحمد فارس الشدياق :

أبعد سمير الفضل (أحمد فارس) تقر جنوب أو يلائم مضجع
مضى وورثناه علوماً غزيرة تظل بها هيم الخواطر تشرع
إذا تليت آياتها فى مقامة تنافس قلب فى هواها ومسمع
سقى جدثا فى أرض لبنان عارض من المزن فياض الجداول مترع
فإن به للمكرمات حشاشة طواها الردى فالقلب حران موجع
وما مات من أبقى على الدهر فاضلا يؤلف أشتات المعالى ويجمع

ثانيا : أن البارودى فى رثائه لم يتحدث عن حالته هو وما أصبح عليه بعد موتهم إلا فى أبيات قليلة على عكس ما كان فى شعره السابق فى رثائه

لوالده أو لزوجته أو لأولاده . وهذا أيضا مناسب لهذا اللون من الرثاء . فهو فى رثائه للأصدقاء مشغول بتعداد مناقبهم وما كانوا عليه من صفات كريمة عن أن يطيل فى وصف حالته هو . فيكفيه فى هذا المقام أبيات قليلة يذكر لنا فيها شيئا بسيطا عن إحساسه بفقد هؤلاء الذين كانوا يملأون عليه حياته بكل معانى الحب والود والوفاق .

ومن أبياته فى قصائد رثائه لأصدقائه يصف فيها حالته بعد رحيلهم قوله فى قصيدته فى رثاء عبد الله باشا فكرى :

ولولا اعتقادى أنه فى حظيرة من القدس لاستولى على الجفن ماؤه

وقوله فى القصيدة الثانية فى رثاء حسين المرصفي وعبد الله فكرى :

لم تدع صولة الحوادث منى غير أشلاء همة فى ثياب
فجعتنى بوالدى وأهلى ثم أنحت تكر فى أترابى
كل يوم يزول عنى حبيب يالقلبى من فرقة الأحباب

ويقول فى نفس القصيدة واصفاً ماأصبح عليه بعد فراق صديقيه المرصفي وفكرى :

لم أجد منهما بديلا لنفسى غير حزنى عليهما واكتئابى

ويقول مبينا ما أصبح عليه من جزع وأسى بعد موت صديقه أحمد فارس الشدياق :

وما كنت مجزاعاً ولكن ذا الأسى إذا لم يساعده التصبر يجزع
فقدناه فقدان الشراب على الظما ففى كل قلب غلة ليس تنقع

ثالثاً : أن قصائد البارودى فى رثاء أصدقائه لم تخلِ من نغمة الفخر

التى يرددها دائما فى شعره فقد أتى بما ينطق بفخره بنفسه وبثبات جأشه وقوة نفسه التى تعودت على تحمل المصائب والصمود أمام ماتأتى به الأيام من حوادث ونكبات . وغرضه من وراء هذا الفخر - كما ذكرت من قبل - هو أن يثبت لنفسه وللناس - خصوصا من الحانقين عليه - أنه مازال قادراً على تحمل الأهوال ومواجهة الصعاب .

ومن الأبيات التى يُشتم منها رائحة الفخر قوله فى قصيدته فى رثاء حسين المرصفي وعبد الله فكري :

قد لعمرى عرفت دهرى فأنكر ت أموراً ما كن لى فى حساب
وتجنبت صحبة الناس حتى كان عوناً على التقاة اجتنابى
لاأبالى بما يقال وإن كنـ ت مليئاً برد كل جواب
قد كفانى بعدى عن الناس أنى فى أمان من غيبة المغتاب
فليقل حاسدى على كما شا ء فسمعى عن الخنا فى احتجاب
ليس يخفى على شىء ولكن أتغابى والحزم إلف التغابى

رابعاً : أن البارودى فى رثائه لأصدقائه كان يمزج - كعادته فى معظم أغراض شعره - رثاءه لهم ببعض الأقوال التى تجرى مجرى الحكمة والمثل حتى تكون له تسلية وعظة يتسلى بها عن شدة مايصاب به من فقد أحبابه ورحيل خلانه . ومما لاشك فيه أن كثرة أسفاره ورحلاته نوعت فى تجاربه وأيضا فقد نوعت فيها صور نشاطه السياسى وما تقلب فى أعطافه من مسرات النعيم وماذاقه من آلام النفى وما اختلفت عليه من نجاح حتى الأوج وفشل حتى الدرك . كل ذلك جعل حياته غنية بالتجارب . وبالتالى

أتاح لشعره أن يزخر بهذه التجارب التى استخلصها من حياته كما يستخلص الشذى من الزهر (١) .

ومن الأبيات التى يجرى القول فيها مجرى الحكمة والمثل قوله فى رثاء صديقه عبد الله فكرى :

تجرد من غمد الحوادث ناصعاً وما السيف إلا أثره ومضاؤه

وقوله فى نهايه القصيدة الثانية التى قالها فى رثاء صديقيه فكرى والمرصفى :

وكفى بالمشيب وهو أخو الحز م دليلا إلى طريق الصواب

إنما المرء صورة سوف تبلى وانتهاء العمران بدء الخراب

وقوله فى قصيدته فى رثاء أحمد فارس الشدياق :

إذا لم يكن الدمع فى الخد مسرب روى فما للحزن فى القلب موضع

وقوله فى نفس القصيدة :

إذا المرء لم يصبر على ما أصابه فماذا تراه فى المقدر يصنع ؟

خامسا : أن قصائد البارودى فى رثاء أصدقائه قد ضمت عدداً من الأبيات التى حاء فيها البارودى زاهداً واعظاً داعياً إلى السمو بالنفس وعدم التعلق بالدنيا والركون إليها لسرعة نفادها وعدم وفائها لمن فيها . وغرضه من ذكر هذه الأبيات هو التسلى والتصبر ودعوة الناس إلى الوقوف على حقيقة هذه الحياة والانصراف عن متاعها الزائل والاستسلام

---

(١) للبارودى رائد الشعر الحديث - شوقى ضيف - ص ١٢٦ .

للقضاء وتصاريف الزمان . كما تصور هذه الأبيات انطباعاته النفسية إزاء الموت والحياة . ومن ذلك قوله فى إبتداء قصيدته فى رثاء صديقيه عبد الله فكرى وحسين المرصفى :

أين أيام لذتى وشبابى أتراها تعود بعد الذهاب
ذاك عهد مضى وأبعد شىء أن يرد الزمان عهد التصابى

وقوله فى أول قصيدته فى رثاء أحمد فارس الشدياق :

متى يشتفى هذا الفؤاد المفجع وفى كل يوم راحل ليس يرجع
نميل من الدنيا إلى ظل مزنة لها بارق فيه المنية تلمع
وكيف يطيب العيش والمرء قائم على حذر من هول مايتوقع
بنا كل يوم للحوادث وقعة تسيل لها منا نفوس وأدمع
فأجسادنا فى مطرح الأرض همد وأرواحنا فى مسرح الجو رتع
ومن عجب أنا نساء ونرتضى وندرك أسباب الفناء ونطمع
ولو علم الإنسان عقبان أمره لهان عليه مايسر ويفجع
تسير بنا الأيام والموت موعد وتدفنا الأرحام والأرض تبلع
عفا على الدنيا فما لعداتها وفاء ولافى عيشها متمتع

وقوله معزيا ابن صديقه أحمد فارس الشدياق :

فلا تعطين الحزن قلبك واستعن عليه بصبر فهو فى الحزن أنجع

سادسا : أن البارودى كان يختم بعض قصائده فى رثاء أصدقائه بما كان معروفا ومشهورا عند كثير من الشعراء العرب فى ختام بعض قصائدهم فى الرثاء . وهو إهداء السلام والتحية إلى روح المرثى والأمل فى اللقاء به

يوم القيامة فى جنات النعيم . وجاء ختام البارودى لقصيدتين من قصائده الثلاث فى رثاء أصدقائه بالحديث عن المعنى الأول وهو إهداء السلام والتحية إلى روح المرثى . إذ يقول فى ختام قصيدته الأولى فى رثاء صديقه عبد الله باشا فكرى :

عليك سلام من فؤاد نزا به إليك نزاع أعجز الطب داؤه

ويقول فى ختام قصيدته الثالثة فى رثاء صديقه أحمد فارس الشدياق مخاطباً ابن المرثى مهدياً إليه وإلى روح والده بهذه القصيدة تلبية لعاطفة الوفاء والمودة بينه وبين صديقه المرثى :

وهاك على بعد المزار قريبة إلى النفس يدعوها الوفاء فتتبع
رعيت بها حق الوداد على النوى وللحق فى حكم البصيرة مقطع

رثاء الحاضنة :

قرأت فى ديوان البارودى (١) ثلاثة أبيات فى رثاء حاضنته ومنها عرفت أن اسمها مريم . وقد عاهدها فى البيت الأول بالبقاء على ذكرها وعدم نسيانها طوال حياته . وقدم لنا سبب وفائه لهذه الحاضنة فقد كانت تتصف فى حياتها بصفات المربية الفاضلة . فقد كانت بارة به ، خيرة ، حسنة القول ، ذات وجه بشوش ، تسر غيرها وتبره ، سليمة القلب لا تحمل ضغينة لأحد فى مغيبه وحضوره . ولذا فهو يهديها - فى البيت الثالث - خير تحية من الله سبحانه . رب العرش الكريم توافيها فى روضات الجنات مع الملائكة الأطهار . يقول البارودى فى رثاء حاضنته :

(١) ج ٢ ص ٨٧

أمريم لا والله أنساك بعد ما صحبتك فى خفض من العيش أنضر
فقد كنت فينا برة القول سرة سليمة القلب فى مغيب ومحضر
فلقيت من ذى العرش خير تحية توافيك فى روض من القدس أخضر

وهكذا اتصف البارودى بصفة الوفاء لكل من اتصل به وعاش معه وجعل شعره سبيلا للتعبير عن أحاسيسه النفسية تجاه كل من يختاره الله إلى جواره من أهله أو خدمه أو أصدقائه فيبكيه بقوله كما يبكيه بقلبه ويجعل شعره يقطر حزنا ولوعة كما تقطر عيونه دمعا وحرقة . ونلحظ فى رثاء البارودى عامة وضوح علامات الصدق والإحساس بالفجيعة . فهى إما لصداقة شخصية ربطت بين البارودى والمرثى كمراثيه لأدباء وعلماء عصره وإما لصلة النسب والقرابة الشديدة بينه وبين المرثى كمراثيه لوالده ولزوجته ولأبنائه . وإما لصلة التربية والعطف والحنان كرثائه لحاضنته . ولذلك كان رثاء البارودى كله حقاً لأن الرثاء الحق لا يصدر إلا عن صدق فى العواطف ووحى من القلب والضمير . وكل رثاء البارودى يتسم بهاتين السمتين . ويمكن تلخيص النتائج التى يستخلصها القارىء لهذا البحث فى النقاط التالية .

أولا : أن تربية الطفل وتنشئته على المبادىء القويمة والأخلاق الفاضلة فى صغره لها أثرها الكبير على جعله مواطنا صالحا نافعا لأهله وبلده فى حياته كلها ، فقد رأينا كيف نشأ البارودى نشأة قويمة وحرص أهله وذووه على غرس القيم الصالحة فى نفسه وتلقينه أخلاق الفروسية والبطولة مما جعله بعد ذلك يرقى إلى أعلى المناصب فى ميدان الجندية وحماية الوطن ويتحمل

الكثير من الأهوال والآلام فى سبيل حماية وطنه وعزة نفسه وكرامتها.

ثانيا: إن كثرة القراءة ومواصلة الإطلاع على كتب التراث لها أثرها الكبير فى صقل الأذهان واتقاد القرائح وتفجير المواهب. فقد عرفنا أن البارودى لم تتكون قريحته الشعرية بالطريقة التى كانت متبعة فى عصره ولم يتفرغ لدراسة النحو والعروض واللغة وإنما كونها عن طريق قراءاته الطويلة لدواوين شعراء العربية القدماء. وما زال يأخذ نفسه برواية مثل هذه الأشعار وفهمها وتبيين مواقع الجمال الفنى فيها حتى فقه أسرارها وأحكم طبيعته واستقامت له شاعريته.

ثالثاً: براعة التصوير فى شعر البارودى وقدرته الفائقة على تصوير المشاهد الحسية والأحاسيس النفسية فقد رأيناه فى شعره فى الرثاء يصف أحاسيسه ونوازعه النفسية وما ألم به من أحداث فى حياته وينقلها إلينا فى صور تنبض بالحسرة واللوعة واللهفة. بحيث تفوق فى هذا الجانب على كثير من شعراء العربية فى القديم والحديث.

رابعا: أن من المباح رثاء الميت وبكاءه وتعداد فضائله بدون لطم خد أو شق جيب أو التلفظ بألفاظ خارجة عن حدود الدين والأدب. مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية ».

خامساً: يتميز شعر البارودى فى الرثاء بصدق العاطفة فى معظم الأحيان والبراعة فى التصوير ومزج الرثاء بالفخر ويذكر بعض الأقوال التى تجرى مجرى الحكمة أو المثل. والتأثر بشعراء العربية الكبار فى العصور الأدبية

الأولى . ثم بقوة الألفاظ والدقة فى اختيار الجمل المعبرة المؤدية للمعنى تمام الأداء .

وأود ألا أختم مقالى هذا إلا بعد أن أنبه إلى أمر هام يتعلق بشعر البارودى بوجه عام ، وهو أن البارودى وإن كان قد عرف بتقليده ومعارضته لشعراء العربية الكبار فى العصور الأدبيه الأولى وخاصة شعراء العصر العباسى إلا أنه قد أتحفنا بشعر كثير وضحت فيه لمسات البارودى العصرية التى تنم عن انتمائه إلى العصر الذى يعيش فيه . وجهرنا بتلك الأحاسيس التى يحس بها كل من يقرأ شعره الوجدانى . حتى لقد وجد الناس فى شعره الذى يعارض به شعر غيره شيئاً غير مجرد تقليد القديم . فقد كان البارودى يعيش بينهم وجاء تفوقه فى محاكاة هذا النمط العالى من الشعر القديم بمثابة الأمل الذى يعيد إلى أبناء عصره ثقتهم ومواهبهم المعاصرة وأن الزمن مازال فى إمكانه أن يمد العرب الأقدمين على هذا النحو . هذا من ناحية أخرى فقد برز فى شعر البارودى عنصر الذاتية الذى يعبر فيه الشاعر عن ذاته وعواطفه الخاصة بجانب نظرته المتميزة للحياة والناس واتصافه بوجدان يقظ يرصد به المجتمع والطبيعة والناس .

وهكذا اجتمع لشعر البارودى كل المقومات التى أمدته بأسلوب إن يكن قديماً فى شكله وبعض خصائصه إلا أنه جديد بالنسبة لعصره متفوق بالنسبة لعصور التخلف التى مر بها الشعر العربى قبله . وتحققت له التجربة الصادقة واللمسات الذاتية التى غابت عن الشعر العربى عند كثير من شعراء العصور الماضية .

« وإذا كانت ضرورة النظر إلى التراث قد دفعت الشاعر إلى أن يبنى قصيدته على نمط القصيدة الطويلة بأقسامها التقليدية المعروفة . فإن إلحاح المحنة على وجدان البارودى كان يتسلل إلى مطالع القصيدة التقليدية فيشيع فيها معانى وصوراً قد تبدو فى ظاهرها متسقة مع المطلع العاطفى لكنها إذا أفردت وانتزعت من سياقها بدت تعبيراً صريحاً عن تلك المحنة[1] » .

فليس تقليد البارودى لشعراء العرب الأقدمين شيئا يقلل من القيمة الفنية العظيمة التى يتسم بها شعر البارودى . بل إن ما قام به البارودى من محاكاته لهؤلاء الشعراء يعد من حسنات البارودى وأفضاله على الشعر العربى كما يقول العقاد وكما يفهم من النص التالى[2] :

« وربما كانت محاكاة البارودى للأقدمين هى أنفع ما فى شعره للأدب المصرى . لأنه رد إلى المعاصرين يقين القدرة على مجاراة العباسيين والمخضرمين والجاهليين فى ميدان اللغة والتركيب بما أتقن من معارضتهم فى المذاهب والأساليب . وليس أدعى من هذه الثقة والابتكار والاستقلال والاعتماد على النفس والإفلات من قيود التقليد . فإذا حسبنا للبارودى سليقته المستقلة وشخصيته المعبرة ونزعته إلى الاعتراف بحق العصر على الشاعر فلا ننسى أن نحسب له جودة التقليد وما استتبعه من حسن الثقة وعزيمة النهضة » .

---

(١) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر - عبد القادر القط - مكتبة الشباب بالقاهرة - ١٩٨٦م - ص ٣٠

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى - دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة - ص ١٤١

ويقول العقاد فى موطن آخر موضحا أن البارودى لم يقف فى شعره عند حد تقليد ومحاكاة الأقدمين وإنما جاء شعره - بجانب هذا - دالا على شخصية قائله ومعبراً عن واقعه وواقع عصره[1].

« ذع مواضع التقليد التى تقضى بها حكم العصر أوحكم الصناعة اللفظية. واستعرض ديوان البارودى كله لاترى فيه بيتاً واحداً إلا وهو يدل على البارودى كما عرفناه فى حياته العامة والخاصة أويدل على البارودى كما وصفته لنا أعماله وصوره لنا مؤرخوه .

وهذه آية الشاعرية الأولى . لأن الشعر تعبير والشاعر هو الذى يعبر عن النفوس الإنسانية . فإذا كان القائل لا يصف حياته وطبيعته فى قوله فهو بالعجز عن وصف حياة الآخرين وطبائعهم أولى . وهو إذن ليس بالشاعر الذى يستحق أن يتلقى منه الناس رسالة حياة وصورة ضمير » .

ولهذا فقد أعجب العقاد بالبارودى وشعره فقال يبين منزلته الشعرية وريادته لحركة البعث الشعرى فى العصر الحديث[2] :

« وله - على هذا - ميزة واضحة لا نظير لها فى تاريخ الأدب العربى المصرى الحديث . وتلك أنه وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمتانة . وأوشك أن يرتفع هـذا الارتفاع بلا تدرج ولا تمهيد وكأنه القمة الشاهقة نبتت فى متون الطود عما قبلها فينقطع بينها وبينه طريق الوصول إلا أن تستدير لها من القمم التى تليها وتقرب منها .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ . (٢) المرجع نفسه ص ١١٠ .

فإذا أرسلت بصرك خمسمائة سنة وراء عصر البارودى لم تكد تنظر إلى قمة تسامیه أو تدانيه . وكنت كمن يقف على رأس الطود المنفرد فلا يرى أمامه غير التلال والكثبان والوهاد إلى أقصى مدى الأفق البعيد . وهذه وثبة قديرة فى تاريخ الأدب المصرى ترفع الرجل بحق إلى مقام الطليعة أو مقام الإمام» .

وفى المعنى نفسه يقول الدكتور محمد حسين هيكل مبينا منزلة البارودى الشعرية فى بعض أغراض شعره ومنها الرثاء[1]:

« أما فى الإباء وفى الفخر وفى الحنين وفى الرثاء وفى وصف الوقائع ووصف الطبيعة فقد سما البارودى إلى حيث لا يلحقه إلا الأقلون من أكبر الشعراء فحولة وأكثرهم تبريزا .

ويرجع تبريزه فى هذه الأغراض إلى أنه كان يعبر بها تعبيراً صادقاً عما تنطوى عليه جوانحه ويتردد فى أعماق قلبه أو عما شارك بنفسه فيه وكان له منه نصيب برضاه » .

وهكذا جاء شعر البارودى ممثلا لشخصية صاحبه ومصوراً لخوالج نفسه ومعبراً عن أحاسيسه وراسماً أصدق صورة لواقع المجتمع الذى عاش فيه وما كان يحدث فيه من وقائع وأحداث .

---

(١) مقدمة ديوان البارودى . صفحة (ض) .

المراجع

الأتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر : د . عبد القادر القط - مكتبة الشباب بالقاهرة ١٩٨٦ م .

البارودى رائد الشعر الحديث : د . شوقى ضيف - دار المعارف بمصر - الطبعة الثالثة - ١٩٧٧م .

ديوان ابن الرومى : حسين نصار - مطبعة دار الكتب - ١٩٧٣م .

ديوان أبى الطيب المتنبى : تحقيق وضبط وتصحيح : مصطفى السقا - إبراهيم الإبيارى - وعبد الحفيظ شلبى - مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر - الطبعة الأخيرة - ١٩٧١م .

ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى : تحقيق : محمد عبده عزام - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - ١٩٧٦م .

ديوان البارودى : ضبط وشرح وتصحيح : على الجارم بك ومحمد شفيق معروف - المطبعة الأميرية بالقاهرة - ١٩٤٨م .

ديوان حافظ إبراهيم : ضبط وتصحيح : أحمد أمين - أحمد الزين - إبراهيم الإبيارى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٠م .

شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى : عباس محمود العقاد - دار نهضة مصر للطبع والنشر - ١٩٧٧ .

شعر الخنساء : تحقيق وشرح : كرم البستانى - دار المسيرة - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - ١٩٨٢م .

الشوقيات : أحمد شوقى - طبع المكتبة التجارية الكبرى - بدون تاريخ .

فى الأدب العربى المعاصر - القسم الثانى : د . إبراهيم عوضين - الطبعة الأولى - ١٩٧٦م .

محمود سامى البارودى : محمد صبرى - طبع مكتبة الشباب - ١٩٢٣م .